بحار الرواية السورية حنا مينة يطوي شراعه ويختم روايته.. مصابيحه زرق منيرة وبحره هادئ لفراقه

انتقد الاستغلال والجشع واضطهاد المرأة وانتصر للمظلومين

حنا مينة.. شيخ الروائيين العرب والبحار الذي واجه البحر بعواصفه وأنوائه

وائل العدس

ألقت شخصيات رسمية وأدبية وفنية نظرة الوداع على جثمان الراحل الروائي الكبير حنا مينة في مستشفى الفرنسي بدمشق قبل أن ينطلق موكب جثمانه إلى مسقط رأسه في مدينة اللاذقية، حيث أقيمت صلاة الجنازة في كنيسة مار ميخائيل وجبرائيل ثم ووري الثرى في المقبرة القديمة بالفاروس.

واصطف الحضور وفي مقدمتهم نائب رئيس الجمهورية الدكتورة نجاح العطار ووزيرا الإعلام عماد سارة والثقافة محمد الأحمد حول نعش الراحل وقام الأب إلياس زحلاوي بأداء الصلاة لروحه.

إذاً، رحل عن عالمنا الأديب والروائي السوري مينة عن عمر يناهز ٩٤ عاماً، بعد معاناة طويلة مع المرض، وهو أبرز الروائيين في العالم العربي، حيث رصد عبر أكثر من أربعين رواية على مدى نصف قرن قضايا الناس، وانتقد فيها الاستغلال والجشع واضطهاد المرأة وتنبأ أن الرواية ستشغل المكانة الكبيرة لدى العرب وستصبح ديوانهم.

ساهم في تطوير الرواية العربية، وفي حوزته الكثير من الروايات والقصص التي تميزت بالواقعية الاجتماعية والصدق والمعاناة، كما قدم نموذجاً ناصعاً للمثقف العصامي المهموم بقضايا الثقافة والمثقفين إلى جانب انشغاله بالمهمشين من أبناء الطبقات الكادحة، الذين كانوا أبطالاً لأعماله الأدبية الخالدة.

كان التحدي السمة الأبرز في حياته، فهو البحار الذي واجه البحر بعواصفه وأنوائه ووقف في شبابه الباكر مقاوماً الاحتلال الفرنسي وتصدى للجهل والتخلف والاستغلال مختصراً في رواياته آلام المسحوقين والفقراء وانتصر دائماً للمظلومين.

تميز بأسلوبه المغرق في الواقعية في تصويره لأبطال رواياته الذين يختار معظمهم من حواري وأزقة مدينته اللاذقية من دون أن يعمد حتى إلى تغيير أسمائهم.

رائحة فريدة

قال وزير الثقافة في تصريح للإعلام: رحل حنا مينة بعد أن خلدته عشرات الأعمال العظيمة لمسنا عبرها أدبه الصادق والملتحم بالواقع وشغفه بالبحر الذي ظهر في معظم نتاجه الأدبي مصوراً البحارة وهم على متن سفنهم يصارعون الأمواج العاتية في دلالات عميقة، مشيراً إلى نضال الراحل الوطني ومشاركته بمقاومة الاحتلال الفرنسي منذ صباه.

وأضاف: «كان الراحل يقول إن مهنة الكتابة ليست سواراً من ذهب بل هي أقصر الطرق إلى التعاسة فجعلنا كلما أعدنا قراءة أعماله نكتشف فيها أبعاداً ومضامين أدبية جديدة ليظل خالداً بما تركه من فكر إنساني عظيم وبعوالمه المستنبطة من واقع يحمل رائحة فريدة.

رحلة شاقة

ولد مينة في اللاذقية عام ١٩٢٤، وتعين على الطفل الذي جاء إلى الدنيا أن يهاجر مع عائلته من اللاذقية إلى مدينة السويدية في لواء إسكندرون، ثم هاجر معها إلى الإسكندرونة، ثم إلى الريف، وبعدها عودة إلى الإسكندرونه نفسها حيث عاش طفولته في حي المستنقع، ليدخل في السابعة من عمره المدرسة، وينال الابتدائية عام ١٩٣٦، ويوقف دراسته. ذلك أنه لم يكن بالإمكان إرساله لمتابعة تعليمه فبالكاد كان لديه «صندل» ينتعله شتاء، على حين يمضي أشهر الصيف حافياً. فالأب كان حمالاً في المرفأ، وأحياناً بائعاً للحلوى، أو أجيراً في بستان، وكثيراً ما كان يترك عائلته ويرحل بحثاً عن عمل، لتبقى الأم تعاني مع أطفالها الخوف والجوع، ما اضطر حنا للعمل في سن مبكرة.

بعد أن أنهى الابتدائية في إسكندرونة، اشتغل في دكان حلاق، وفي ذلك الدكان تفتحت مواهبه، فاحترف كتابة الرسائل للجيران وكتابة العرائض للحكومة، لكونه الوحيد الذي يفك الحرف في الحي، هكذا كانت بدايته الأدبية المتواضعة جداً.

كانت أسرته تتلقى المساعدة والشفقة من الكنيسة، وقد تحدث عن طفولته في الإسكندرونه قائلاً: «طوال أربع سنوات كنت أقوم مع بعض أطفال المدرسة بالخدمة في الكنيسة، نطفئ الشموع، نحمل الأيقونات، وننام أحياناً واقفين، بكلمة، صلّيت بما فيه الكفاية، أنا مطمئن من هذه الناحية. وفي باحة المدرسة والكنيسة كان ثمة قبور يونانية قديمة، وعلى أحدها كان مجلسي في ساعات الضيق والغربة، والجوع في أحيان غير قليلة، على هذا القبر تعلمت أن أحلم بالمدينة الفاضلة قبل أن أعرف اسمها، وبالحب قبل أن أبلغ السن التي يحق فيها لمثلي أن يحب» وهكذا كان لحياته القاسية أثرها في رواياته تلك، وقد قال عنها: «كنت أعاني البطالة والغربة والفقر والجوع وأحسد الكلب لأن له مأوى».

كان والده رحالة من طراز خاص، لم ينفع ولم ينتفع برحلاته كلها، أراد الرحيل تلبية للمجهول، تاركاً العائلة أغلب الأحيان في الأرياف، للخوف والظلمة والجوع ويقول حنا: «لطالما تساءلت وراء أي هدف كان يسعى؟ لا جواب طبعاً، إنه بوهيمي بالفطرة».

نما حنا عليلاً، وقد عملت أمه وأخواته الثلاث خادمات، أما هو الصبي الوحيد الناحل فقد عمل أجيراً.

في عام ١٩٣٨، تمت المؤامرة بين تركيا وفرنسا، وأعطي اللواء إلى تركيا، وفي عام ١٩٣٩ حدثت هجرة الأرمن والعرب من اللواء. وذكر حنا أنه كان ابن ستة عشر ربيعاً عندما هرب في أيلول عام ١٩٣٩ من إسكندرون إلى اللاذقية عن طريق كسب، ومن احتكاكه مع الأرمن في هذه الظروف كتب فيما بعد روايته «الفم الكرزي».

وكان حنا قد دخل المعترك السياسي الحزبي مبكراً منذ أن كان فتى في الثانية عشرة من عمره، وناضل ضد الانتداب الفرنسي، وعند وصوله اللاذقية عمل حمّالاً في المرفأ، ووجد أن العمل الحزبي في اللاذقية صعب، فشرع مع أصدقائه في تأسيس نقابات في المرفأ، وهكذا استوحى من هذه الحياة فيما بعد روايته «نهاية رجل شجاع».

كان حنا يبيع في الشوارع جريدة «صوت الشعب»، ويروي أنه كانت هناك صعوبة في توزيع الجريدة بسبب مقاومة الإقطاعيين.

بعد أن قاوم الاحتلال الفرنسي تطوع في البحرية، ثم أصبح بحاراً لمدة قصيرة على المراكب الشراعية التي تنتقل بين مرافئ المتوسط العربية، وعلى هذه المراكب، وخلال العواصف، عاين الموت بنظرات باردة ومن هنا كان ولعه بالبحر ثم الكتابة عنه.

بعد الإبحار على المراكب، غدا الرغيف خيالاً، وكان عليه سداً لجوع العائلة، أن يركض وراءه. فقد اضطر بادئ ذي بدء للعمل حمالاً في المرفأ، ثم حلاقاً في دكان صغير على باب ثكنة في مدينة اللاذقية.

وفي عام ١٩٤٨ انتقل حنا إلى بيروت حيث أمضى بعض الأشهر قبل أن يستقر في دمشق، حيث بدأ نجمه يصعد تدريجياً مع روايته «المصابيح الزرق» وعمله في الصحافة في جريدة «الإنشاء» التي أصبح رئيساً لتحريرها.

تزوج من السيدة مريم التي لم تفارقه مطلقاً، وقد أنجبت له خمسة أولاد بينهم صبيان هما سليم وقد توفي في الخمسينيات في ظروف النضال والحرمان والشقاء، والآخر الممثل النجم سعد أصغر أولاده، وثلاث بنات سلوى وسوسن وأمل. لكن عمله في السياسة أدى به إلى الرحيل إلى بيروت مجدداً ثم إلى المجر، ويذكر حنا النوم تحت الجسور في سويسرا وأخيراً إقامته في الصين خمس سنوات، وعودته إلى الوطن عام ١٩٦٧ فأمضى بضعة أشهر في اللاذقية ثم دمشق، حيث عمل في كتابة المسلسلات الإذاعية بالفصحى والعامية، قبل أن يعمل في وزارة الثقافة.

وقد أفاده العمل في البحر، في كتابة «الشراع والعاصفة»، والاختباء في الغابات أيام مطاردة الفرنسيين وفّر له مادة لكتابة «الياطر».

في إحدى قصصه (الكتابة على الأكياس) يصور حنا الظروف الصعبة التي ميزت طفولته، وكيف جعل منه سوء التغذية صبياً نحيلاً غير قادر على القيام بعمل جسدي شاق، وحين أحس بضرورة مساعدة عائلته المعدمة مادياً، ذهب إلى الميناء، حيث اكتشف عدم قدرته على رفع الأكياس، فشعر بالأسى. وحين برزت حاجة لكتابة بيانات بسيطة على الأكياس اختاره المعلم لأنه يتقن الكتابة.

ويذكر في القصة أنه حين التقى معلمه في دمشق بعد مرور سنين طويلة، وكان بصحبته صديق يعرف كليهما، قال ذلك الصديق للمعلم: إن حنا كاتب معروف اليوم، قال ذلك الرجل البسيط: نعم، أعرف ذلك. لقد بدأ الكتابة عندي، على الأكياس!

من أقواله

– أنا «كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين فالكفاح له فرحه، له سعادته، له لذّته القصوى، عندما تعرف أنك تمنح حياتك فداء لحياة الآخرين، هؤلاء الذين قد لا تعرف لبعضهم وجهاً، لكنك تؤمن في أعماقك، أن إنقاذهم من براثن الخوف والمرض والجوع والذل، جدير بأن يضحى في سبيله، ليس بالهناءة وحدها، بل بالمفاداة حتى الموت معها أيضاً. إن وعي الوجود عندي، ترافق مع تحويل التجربة إلى وعي، وكانت التجربة الأولى في حي (المستنقع) الذي نشأت فيه في اسكندرونة، مثل التجربة الأخيرة، حين أرحل عن هذه الدنيا، ومثل تجربة الكفاح ما بينهما، منذورة كلها لمنح الرؤية للناس، لمساعدتهم على الخلاص من حمأة الجهل، والسير بهم ومعهم نحو المعرفة، هذه التي هي الخطوة الأولى في المسيرة الكبرى نحو الغد الأفضل».

– مهنة الكاتب ليست سواراً من ذهب، بل هي أقصر طريق إلى التعاسة الكاملة. لا تفهموني خطأ، الحياة أعطتني، وبسخاء، يقال إنني أوسع الكتّاب العرب انتشاراً، مع نجيب محفوظ بعد نوبل، ومع نزار قباني وغزلياته التي أعطته أن يكون عمر بن أبي ربيعة القرن العشرين. يطالبونني، في الوقت الحاضر، بمحاولاتي الأدبية الأولى، التي تنفع الباحثين والنقاد والدارسين، لكنها، بالنسبة إلي، ورقة خريف أسقطت مصابيح زرق.

– إن البحر كان دائماً مصدر إلهامي، حتى إن معظم أعمالي مبللة بمياه موجه الصاخب، وأسأل: هل قصدت ذلك متعمّداً؟ في الجواب أقول: في البدء لم أقصد شيئاً، لحمي سمك البحر، دمي ماؤه المالح، صراعي مع القروش كان صراع حياة، أما العواصف فقد نُقشت وشماً على جلدي، إذا نادوا: يا بحر أجبت أنا! البحر أنا، فيه وُلدت، وفيه أرغب أن أموت.. تعرفون معنى أن يكون المرء بحّاراً؟

– إنه يتعمّد بماء اللجة لا بماء نهر الأردن، على طريقة يوحنا! أسألكم: أليس عجيباً، ونحن على شواطئ البحار، ألا نعرف البحر؟ ألا نكتب عنه؟ ألا نغامر والمغامرة احتجاج؟ أن يخلو أدبنا العربي، جديده والقديم، من صور هذا العالم الذي هو العالم، وما عداه، اليابسة، جزء منه! البحّار لا يصطاد من المقلاة! وكذلك لا يقعد على الشاطئ، بانتظار سمكة السردين التافهة. إنه أكبر، أكبر بكثير، وأنا هنا أتحدث عن البحّار لا عن فتى الميناء!

– الأدباء العرب، أكثرهم لم يكتبوا عن البحر لأنهم خافوا معاينة الموت في جبهة الموج الصاخب. لا أدّعي الفروسية، المغامرة نعم! أجدادي بحّارة، هذه مهنتهم، الابن يتعلم حرفة أهله، احترفت العمل في الميناء كحمّال، واحترفت البحر كبحّار على المراكب. كان ذلك في الماضي الشقي والماجد من حياتي، هذه المسيرة الطويلة كانت مشياً، وبأقدام حافية، في حقول من مسامير، دمي سال في مواقع خطواتي، أنظر الآن إلى الماضي، نظرة تأمل حيادية، فأرتعش. كيف، كيف؟

– أين، أين؟ هناك البحر وأنا على اليابسة! أمنيتي الدائمة أن تنتقل دمشق إلى البحر، أو ينتقل البحر إلى دمشق، أليس هذا حلماً جميلاً؟ السبب أنني مربوط بسلك خفي إلى الغوطة، ومشدود بقلادة ياسمين إلى ليالي دمشق الصيفية الفاتنة، وحارس مؤتمن على جبل قاسيون، ومغرم متيّم ببردى، لذلك أحب فيروز والشاميات.

> الصايغ: مينه أحد رواد القصة والرواية العربية وأحد المؤسسين الكبار لهما بعد جيل نجيب محفوظ

الأوسع انتشاراً

نعى مهرجان الإسكندرية السينمائي لدول البحر المتوسط أيقونة الأدب والسينما السورية حنا مينة، وجاء في بيان لرئيس المهرجان الأمير أباظة: ينعى مهرجان الإسكندرية أيقونة الأدب والسينما السورية الأديب الراحل الكبير حنا مينة الذي رحل عن دنيانا، وإدارة المهرجان وهي تنعى الفقيد الكبير فإنها تنعى أحد الآباء المؤسسين لفن الرواية في سورية والوطن العربي كما أن رواياته كان لها الدور الأكبر في نقل الرواية المكتوبة إلى شاشة السينما.

وقرر المهرجان في دورته الـ٣٤ التي تُقام خلال الفترة من ٣ إلى ٨ تشرين الأول المقبل الاحتفاء بالراحل، وسيعرض خلاله الفيلم الوثائقي «الريس»، كما يعقد المهرجان ندوة حول أثر الأديب الراحل في الثقافة السورية ودوره في نقل الأدب المكتوب إلى شاشة السينما.

بدوره قال الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب الشاعر والكاتب الإماراتي حبيب الصايغ في بيان صحفي إن الراحل الكبير حنا مينة كان مؤسساً لاتحاد الكتاب السوريين، كما لعب دوراً بارزاً في التمهيد لإنشاء الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، وشارك بفعالية في الاجتماع التأسيسي الثاني الذي عُقد بمصيف بلودان بسورية عام ١٩٥٦، وكرمه الاتحاد العام عام ٢٠٠٥، في الاحتفال الذي عقد بدمشق بمناسبة مرور ٥٠ عاماً على إنشائه، كما منحه اتحاد كتاب مصر جائزة «نجيب محفوظ للكاتب العربي» في دورتها الأولى عام ٢٠٠٦.

وأكد أن مينة أحد رواد القصة والرواية العربية، وأحد المؤسسين الكبار لهما بعد جيل نجيب محفوظ.

وأشار الصايغ إلى أن مينة ولد في أسرة فقيرة، وكانت معظم أعماله عن الصيادين والبحر، حيث نشأ في لواء الإسكندرون، قبل أن يستقر في طفولته بمدينة اللاذقية منذ عام ١٩٣٩، على شاطئ البحر المتوسط، حيث لمس بنفسه متاعب الصيادين وكفاحهم من أجل حياة كريمة، فعكس تلك المعاناة في أعماله التي انحازت بشكل كبير وأساسي إلى الواقعية.

أما الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق إبراهيم الخياط فأشار إلى أن مينة هو الاسم الروائي الكبير والمناضل العريق وأوسع الأدباء العرب انتشاراً بكتبه مع محفوظ وقباني، مضيفاً: آلمنا الرحيل المرّ وأحزننا الغياب الصادم ولكننا مبتهجون بالخلود الذي سطّر حروفه، وعزاؤنا في الجيل الأدبي المبدع الواعد.. الذكر الطيب والخالد لكاتب الكفاح والفرح الإنسانيين.

وصية.. لا عتبٌ ولا عتابٌ

قبل عشر سنوات، كتب الراحل وصيته وجاء فيها:

أنا حنا بن سليم حنا مينة، والدتي مريانا ميخائيل زكور، من مواليد اللاذقية العام ١٩٢٤، أكتب وصيتي وأنا بكامل قواي العقلية، وقد عمّرت طويلاً حتى صرت أخشى ألا أموت، بعد أن شبعت من الدنيا، مع يقيني أنه لكل أجل كتاب.

لقد كنت سعيداً جداً في حياتي، فمنذ أبصرت عيناي النور، وأنا منذورٌ للشقاء، وفي قلب الشقاء حاربت الشقاء، وانتصرت عليه، وهذه نعمة الله، ومكافأة السماء، وإني لمن الشاكرين.

عندما ألفظ النفس الأخير، آمل، وأشدد على هذه الكلمة، ألا يُذاع خبر موتي في أي وسيلة إعلامية، مقروءة أو مسموعة أو مرئية، فقد كنت بسيطاً في حياتي، وأرغب أن أكون بسيطاً في مماتي، وليس لي أهلٌ، لأن أهلي، جميعاً، لم يعرفوا من أنا في حياتي، وهذا أفضل، لذلك ليس من الإنصاف في شيء، أن يتحسروا علي عندما يعرفونني، بعد مغادرة هذه الفانية.

كل ما فعلته في حياتي معروفٌ، وهو أداء واجبي تجاه وطني وشعبي، وقد كرست كل كلماتي لأجل هدف واحد: نصرة الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض، وبعد أن ناضلت بجسدي في سبيل هذا الهدف، وبدأت الكتابة في الأربعين من عمري، شرّعت قلمي لأجل الهدف ذاته، ولما أزل.

لا عتبٌ ولا عتابٌ، ولست ذاكرهما، هنا، إلا للضرورة، فقد اعتمدت عمري كله، لا على الحظ، بل على الساعد، فيدي وحدها، وبمفردها، صفّقت، وإني لأشكر هذه اليد، ففي الشكر تدوم النعم.

أعتذر للجميع، أقرباء، أصدقاء، رفاق، قُرّاء، إذا طلبت منهم أن يدعوا نعشي، محمولاً من بيتي إلى عربة الموت، على أكتاف أربعة أشخاص مأجورين من دائرة دفن الموتى، وبعد إهالة التراب عليّ، في أي قبر مُتاح، ينفض الجميع أيديهم، ويعودون إلى بيوتهم، فقد انتهى الحفل، وأغلقت الدائرة.

لا حزنٌ، لا بكاءٌ، لا لباسٌ أسود، لا للتعزيات، بأي شكل، ومن أي نوع، في البيت أو خارجه، ثمّ، وهذا هو الأهمّ، وأشدد: لا حفلة تأبين، فالذي سيقال بعد موتي، سمعته في حياتي، وهذه التأبين، وكما جرت العادات، منكرة، منفّرة، مسيئة إلي، استغيث بكم جميعاً، أن تريحوا عظامي منها.

كلُّ ما أملك، في دمشق واللاذقية، يتصرف به من يدّعون أنهم أهلي، ولهم الحرية في توزيع بعضه، على الفقراء، الأحباء الذين كنت منهم، وكانوا مني، وكنا على نسب هو الأغلى، الأثمن، الأكرم عندي.

زوجتي العزيزة مريم ديمان سمعان، وصيتي عند من يصلون لراحة نفسي، لها الحق، لو كانت لديها إمكانية دعي هذا الحق، أن تتصرف بكلّ إرثي، أما بيتي في اللاذقية، وكل ما فيه، فهو لها ومطوّب باسمها، فلا يباع إلا بعد عودتها إلى العدم الذي خرجت هي، وخرجت أنا، منه، ثم عدنا إليه.

واجب العزاء

بعد أن تلقت عائلة الراحل العزاء في اللاذقية، تنتقل إلى دمشق لتقام مراسم العزاء من السادسة وحتى التاسعة من مساء يومي الثلاثاء والأربعاء المقبلين ٢٨ و٢٩ آب، في قاعة كنيسة الصليب المقدس في حي القصاع.

نـافـذة

رحيل صوت سورية الروائي

ورحل الأديب الروائي شيخ الرواية السورية وعاشق البحر بكل تفصيلاته، حنا مينة المبدع الذي لم يتوقف حبر قلمه مهما كانت درجة الاختلاف في تقييم الأدباء، ومهما وقف النقاد مع الأديب المبدع أو ضده، فإن الأدب، والنتاج الأدبي، هو الحكم الأساسي، وهو القادر على الفرز بين ما هو صالح أو غير صالح، أو محايد وغير مؤثر!

وكم من أديب رفعته السلطات أو التيارات ما لبث أن عاد إلى موقعه الطبيعي الذي يفرضه أدبه وتأثيره!! وكم من أديب رفعته مصادفة عمل أو أكثر عاد إلى حقيقته عندما توقف عن العمل والإبداع! هذا مع إيماننا بأن بعض الأعمال المفردة تملك القدرة على إدراج صاحبها في خانة الإبداع العظيم، كما كان من شأن شادي عبد السلام صاحب المومياء، الذي لم يمهله القدر أن يخرج لنا بعمل آخر من المستوى ذاته، أو من مستوى أعلى...

الروائي العربي السوري حنا مينة روائي مختلف، فهو نسيج وحده، لا يشبه نجيب محفوظ في سيرته وثقافته، ولا يشبه محمد شكري حياة وتسكعاً، ولا يقترب من العجيلي فكراً وحياة.. إنه نبتٌ مختلف بكل تفصيلاته الحياتية والروائية والنقدية والأيديولوجية، عاش هذا التفرد بكل تفصيلات حياته حتى رحيله الذي أدمى الرواية السورية صباح عيد الأضحى.

نشر حنا مينة أعماله منذ عام ١٩٤٢ في الدوريات السورية واللبنانية، ويصرح بأن أغلب هذه القصص البدايات ضاعت وعبثت بها يد الزمن، وبقي يمارس أنشطته الكتابية بعد أن أستقر في دمشق عام ١٩٤٧، إلى أن أصدر عمله الروائي الأول (المصابيح الزرق ١٩٥٤) ومما يحمد لهذا العمل الروائي الأول قدرته على أن يكرس اسم حنا مينة روائياً من الطراز الأول، بل إن عدداً من النقاد أجروا مقارنات بينه وبين نجيب محفوظ في هذه الرواية التي انتشرت في عاصمة الثقافة العربية القاهرة آنذاك، وبعضهم يعزو الاهتمام بالرواية إلى الاتجاه الفكري الأيديولوجي لحنا مينة الذي عمل على دعاية منظمة، وإذا سلمنا بذلك، فإن الرواية لو لم تكن تملك المقومات الفنية العالية، فإنها لن تجد الصدى الطيب، إضافة إلى أن النقاد ليسوا أصحاب ميول واحدة، وكان بإمكانهم أن يفرغوا الرواية لو لم تكن تملك القدرة على الوقوف والمقارعة والموازنة.

إن رواية المصابيح الزرق كانت علامة لها دلالاتها، ولها فضلها في أدب حنا مينة الروائي، بل وفي الرواية السورية عموماً، إذ استطاعت هذه الرواية أن تلفت الانتباه إلى وجود أدب روائي في سورية، وقد جاءت مرحلة الوحدة – على الرغم مما اعتورها– لتكمل مسيرة الاهتمام بالأدب السوري رواية وشعراً وقصة، وخاصة إذا علمنا أن أدباء مصر وسورية اشتركوا معاً في رابطة للكتّاب، وعرف بعضهم بعضاً معرفة حقيقية قريبة، وانعقدت بينهم صداقات أدبية حميمة، وعلى الرغم مما حدث من انقلاب بعض الكتّاب على أصدقائهم بعد الانفصال إلا أن الأثر الإيجابي كان الأكبر والأكثر دواماً.

المهم أن حنا مينة انطلق عربياً قوياً، وروائياً يحمل هماً ورسالة، انعكسا في روايته هذه، كما انعكسا في مجمل رواياته التي سيصدرها عبر أكثر من خمسين عاماً من الرواية.

يذكر حنا مينة كيف كتب روايته الأولى المصابيح الزرق، وروايته الثانية الشراع والعاصفة ومن ثم توقف حتى صدرت روايته الربيع والخريف وهو في الغربة حتى عام ١٩٦٧ حيث امتلأ وبدأ بالتفجر بين أعوام ٧٦–٨٨ أنجزت حوالى خمس عشرة رواية وستة كتب في الدراسة..) وهذا الكلام يتناول بوضوح ما يسمى لدى المبدع بمرحلة الكمون، فقد توقف عن الكتابة حوالى عشر سنوات يندم عليها أشد الندم، لكنه عندما وجد متسعاً من السكون إلى كوامنه تفجر دفعة واحدة ليكتب ما اعتمل في صدره، وما اختزنته ذاكرته، وقد أشار في غير موضع إلى أنه كان يكتب أكثر من عمل روائي في الوقت نفسه، وهذا ما أتاح له اختصار السنوات العشر التي قضاها في صمت وكمون.. وكان لكل رواية أصدرها مينة وقعها على القارئ والوسط الثقافي معاً، كما أن هذه المتابعة الحثيثة كرست مينة روائياً سورياً وعربياً، جعل الرواية وحكايتها هاجسه الذي أرقه حتى يفرغه على الورق.

في كتابه (القصة والدلالة الفكرية) يقدم حنا مينة رؤيته للأدب ودوره، ويبين بوضوح رأيه من التصنيفات، الواقعية، والواقعية الجديدة، ورأيه في الأيديولوجيات، ويتحدث بوضوح عن رأيه بالأدب المؤدلج الذي أساء للأيديولوجية، ولم يرتق إلى مرحلة الأدب.. وهذا الكتاب، إضافة إلى آراء حنا مينة المبثوثة في دراساته وكتبه وحواراته تعطي انطباعات عن دور الأيديولوجية في رواياته وأدبه، فهو استطاع أن يحمل أيديولوجيته في تضاعيف أدبه وشخصياته التي رسمها بإتقان، وذلك من خلال اختياراته لها ولانتماءاتها، ولحركة مسرحها الحياتي، فعبر عن الشريحة والشرائح التي ينتمي إليها ويحمل همها، ولكن من دون أن يكون أدبه لافتة عريضة لما يمكن أن يكون عليه الأدب المؤدلج، وإن كان ثمة وضوح للأيديولوجية، فهو في روايته الربيع والخريف، التي كتبها في غربته في المجر بدا متأثراً بالتجربة الشيوعية الاشتراكية في أحد معاقلها، وما سوى ذلك كان حنا مينة مع البحر وعماله وقضاياهم وهمومهم وصراعاتهم النفسية العميقة.

يعتدّ حنا مينة بالكاتب صاحب الرؤية، وفي حديثه عن حسيب كيالي، يرى أن من سوء حظ كيالي، تشيخوف العرب على حد تعبيره، أنه لم يكتب نقداً أو دراسة واحدة، ولا شك بأن ما يراه مطعناً على غيره سيحاول تلافيه هو بالطرائق الممكنة والأساليب المتاحة، لذلك أصدر عدداً من الدراسات.

وفي دراسات حنا مينة المفردة نجد ملمحين:

× تناول الأدب الاشتراكي من دون غيره بالتحليل والدراسة والإجلال، كما فعل مع أدب ناظم حكمت، وهذا يشير إشارة واضحة إلى ينابيعه واتجاهه، نظراً للإعجاب الذي يكنه لناظم حكمت وتجربته في الأدب والحياة. ومما لا شك فيه أن حنا مينة أجاد في اختيار الشخصية المدروسة القائمة على تعزيز اتجاهه في الأدب وطريقة الحياة على السواء.

× تدوين تجربته الروائية وسيرته الذاتية أدبياً، ومن يقرأ ما كتبه حنا مينة في هواجس في التجربة الروائية والقصة والدلالة الفكرية يرى بوضوح أن مينة أراد أن يثبت تجربته ورؤيته في الرواية ودورها في الحياة، وذلك من خلال استعراضه لقضايا كثيرة: المفهوم عن العالم –معادلة الكاتب والقارئ– لمن يكتب القاص وكيف؟ لأي جيل يكتب القاص، وكيف؟ التجربة الخاصة في البيئة أولاً– مسؤولية القارئ في الفهم– أزمة القصة.. وعناوين أخرى كثيرة يتنقل فيها حنا مينة بين الحديث الذاتي الخاص، وبين التنظير للرواية وكتابتها، وكأنه بذلك يريد أن يعيد القارئ إلى الوعي الذي يغيب عنه في أثناء قراءة الرواية.

حظي حنا مينة بتكريم القيادة السياسية ومنح وسام الاستحقاق تقديراً لجهوده في الأدب والرواية، وتقديراً لريادته الروائية في سورية والوطن العربي، وهذا التكريم يمثل تكريماً للمبدعين السوريين عموماً، إضافة إلى ما فيه من تقدير لجهود حنا مينة في تأصيل الرواية العربية السورية، ونقلها إلى العالم العربي والخارج، وقد أسعفت الأيام الروائي الكبير بنقل أعماله إلى الشاشتين، فوصلت أفكاره إلى مختلف فئات المجتمع، وها هو يشهد في رحيله كلمات الشباب الذين أحبوه، وكلمات الشيوخ الذين عاصروه ليعود إلى أرض اللاذقية وفاء وبراً وأدباً وجسداً.

إسماعيل مروة